

قصة
سیدنا زکریاؑ



قصة سيدنا زكريا عليه السلام

١- دعاء زكريا لولد صالح

ولون آخر من آلاء الله على عباده وآيات قدرته التي أحاطت بكل شيء ، تجلى في دعاء زكريا لولد صالح ، رضي ، برّ ، تقى ، يرثه ويرث من آل يعقوب ، ويقوم بالدعوة إلى الله ، وذلك حين تقدمت به السنّ ، ووهن منه العظم ، ولج به الشيب ، وانقطع الرجاء من أن تلد زوجته ، فأجاب الله تعالى دعاءه وكذب ظنون الناس ، وأبطل التجارب القديمة ، فرزقه ولدًا راشدًا ، بكَرَّ به النبوغ والحكمة ، والحلم والعلم ، والكتاب في الصغر ، وخص بالحنان والصلاح والتقوى والبر بالوالدين ، والرقّة ولين الكنف وخفض الجناح ، وربط الله على قلب زكريا ، وأراه آيات تدل على قدرة الله الواسعة ، وأنه يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء ، وأراه تصرفه في خلقه وفي أعضاء جسمه يحرك ما يشاء ويعطل ما يشاء ، وتحقق له أن الكون كله بيده ، يخرج الميت من الحي ، ويرزق من يشاء بغير حساب .

٢- نذر امرأة عمران

وقد نذرت امرأة عمران من أسرة سيدنا زكريا عليه السلام ، وكانت امرأة صالحة تحب الله وتحب دينه — أنها إذا ولدت ذكرًا تهب هذا الولد لله لخدمة دينه ، وسألت الله أن يتقبل هذا الولد ، وينفع به دينه وعباده ، وأن يكون داعيًا إلى الله وإمامًا من أئمة الهدى .

٣- قالت : رب اني وضعتها أنثى

وأرادت المرأة الصالحة أمراً وأراد الله أمراً ، والله أعلم بمصلحة عباده ، فإذا هي تلد أنثى ، فتحزن لذلك وتغشاها الكآبة ، ولكن الوليدة لم تكن ككل أنثى ، بل كانت أقوى على العبادة ، وأعلى همة في الطاعات والخيرات من كثير من الفتيان ، وإذا قدر الله — لحكمة يعلمها — أن تكون أنثى ، والنبوة لا يضطلع بأعبائها إلا الرجال ، فقد قدر الله أن تكون أمًا لنبي صالح يكون له شأن :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٥ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٢٦ .

[آل عمران: ٣٦]

٤- عناية الله بالفتاة الصالحة

وكانت في كفالة سيدنا زكريا لمكانتها منه ، وفي رعاية الله تعالى ، فكان الله يكرمها بالأثمار والفواكه في غير أوانها وفي غير مكانها ، تأكل منها ما تشاء وتهب منها ما تشاء .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لَأَكْبَرُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧ ﴾ [آل عمران: ٣٧] .

٥- إلهاماً من الرب الرحيم

وألهم الله زكريا ، وهو نبي من الأنبياء ، ومن العقلاء الأذكياء ، أن من يقدر على أن يكرم فتاةً صالحةً ، أخلصت أمها في النذر بها والدعاء لها ، وأخلصت هي في الطاعة والعبادة ، بفواكه سابقة لزمانها أو متأخرة عن أوانها ، يقدر أن يهب شيخاً قد طعن في السنّ وعلاه الشيب ، وأثر فيه الوهن ، ولدًا قد انقطع منه الرجاء لعلو السنّ ، وعقر الزوج ، وجرت العادة ألا يولد لرجل في هذه الحال .

فجاشت نفسه ، وعلت همته وانتعش الأمل ، وقويت الثقة بالرب ، ففاض لسانه بدعاء أمّنت عليه الملائكة وتحركت به رحمة الله ، وكان كله إلهاماً من الرب الرحيم ، وتقديرًا من العزيز العليم :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝﴾ .

[آل عمران: ٣٨]

٦- بشارة ولد

وأجاب الله دعاءه ، وتوجهت إليه البشارة بولد صالح قرب زمان ولادته . وخلق الإنسان من عجل ، فطلب إمارة على إمكان هذا الحدث الكبير وقرب ظهوره ، فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝﴾ [آل عمران: ٤٠] ، فالقادر الذي يستطيع أن يسلب خواصّ الأشياء فيجعل اللسان الناطق أبكم ، لا يستطيع أن يتحرك بكلمة ، يستطيع أن يؤدع ما شاء من مخلوقاته ما شاء من خواصّ ، والقويّ الذي يستطيع أن يمنع يستطيع أن يعطي .

٧. آيات الله وقدرته

وظهرت آيات الله وقدرته في جسمه ثم في بيته وأسرتة ، وولد يحيى ، فقرت به عينه ، واشتدّ به أزره ، وعاشت به دعوته .

واسمعوا القرآن يحكي هذه القصة تارةً في إيجاز وطورًا في تفصيل ، فيقول :

﴿وَرَكِرَ يَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .

[الأنبياء: ٨٩]

٨. يحيى يضطلع بأعباء الدعوة

ويولد يحيى فيكون قرة عين لأبويه ، وخليفة لوالده العظيم ، فيضطلع بأعباء الدعوة إلى الله والدين الخالص ، تظهر آثار النجاة منذ الصغر ، فيقبل على العلم بشغف وهو غلام ، ويتحلى بالصلاح والتقوى وهو شاب ، ويمتاز عن أقرانه في الحب والحنان ، والبر بالأبوين يُشار في ذلك إليه بالبنان ، يقول الله تعالى مخاطبًا له : ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ﴿١٤﴾ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٥﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٦﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٢] .